ابن عقيل الزُّرَعي

حياته وشعره

الدكتور شفيق محمد عبدالرحمن الرقب
جامعة مؤتة

ترجمته

ضمّنت المصادر التي وقف عليها الدّارس بالترجمة لابن عقيل الزُّرعيّ أو بذكره، ما عدا كتاب (عقود الجمان من شعراء هـذا الزّمـان) لابـن الشّـعّار الموصليّ، فقـد ورد فيه ترجمة موجزة لهذا الشّاعر. وهو في هـذه التّرجمـة أحمد بن عقيل بن نصر أبو العبّاس الزّرعي العامريّ[1]، وزُرعُ[2] التي يُنسـبُ إليها قرية على باب دمشق.

ولم يُنصّ ابنُ الشّعّار على السّنة التي ولد فيها ابنُ عقيل، غير أنه ذكر أنه توفي شاباً في رمضان سنة ٦٢٣هـ[3]، وهذا يقود إلى القول إنه ربما ولِدَ فـي الرّبع الأخيرِ من القرن السادس الهجري.

وقد أشار ابن الشّعّار إلى اتصال ابن عقيل بالملك الأيوبي المعظم عيسـى وملازمته له، وذلك إذ يقول: "خدم الملك المعظم عيسى بن أبي بكر، وجعل لـه رزقاً يتناوله كل شهر، وله فيه مدائح كثيرة وكـان ملازمـاً حضرتـه سـفراً وحضراً"[4].

ولم يظفر الدّارس بمعلومات أخرى عن حياة الشاعر، ومن ثم فإنه سيعول على الشعر الذي قاله لرسم صورة تقريبية للمعالم البارزة في حياته.

ومن الظواهر البارزة التي يُمكنُ استخلاصُها من شعر ابن عقيل نشأته في منطقة حوران، فهو لا يفتأ يذكر الأماكن الحورانية في شعره معبراً عن حنينـه

إليها، وكيف أنه قضى الأيام الجميلة من عمره فيها، كما في الأبيات التالية التي يتمنى فيها – وهو في مصر – أن يعود إلى بلاده، ذاكراً مواضع بعينها[٥].

تذكّرتُ في أرض بُوسي النَعيم وبُشْرى البشير بنيْل المُراد
فمرو العلاة إلى بيتِ راس فإربد فالحصن ذات العماد[٦]
بلادٌ تشوقك دون البلادِ فسقياً ورعْياً لها من بلادِ

ويُستدَل من شعر ابن عقيل أنه اضطرّ إلى مغادرة ديار الشّام إلى مصر واتخاذها دار إقامة ردحاً من الزمن. ويبدو أن علاقة الشاعر بأبيه لم تكن مستقرة، وأن صلاته بأقاربه كان يشوبها بعض الكدر، وأنه لم يلق منهم ما كان يأمل فيه من احترام وتقدير، مما لم يمكنه من استمرار الإقامة بينهم، فآثر الهجرة إلى مصر لعلّه يتجنب مظنة الإساءة إلى أبيه وذويه من ناحية، وينتشل نفسه من غيابات الخمول من ناحية ثانية. وقد عبر ابن عقيل عن عدم رضاه عن موقف قومه منه في غير ما موضع من شعره، من ذلك قصيدة أرسلها من مصر إلى أخيه في بلاد الشام، وهي قصيدة دفاقة بالعاطفة ولا سيما حين يعرض الشاعر لذكر أبنائه الصغار الذين تركهم في بلاد الشام، راجياً أخاه أن يكفلهم ويعنى بهم لأنهم بمنزلة الأيتام في غيابه عنهم[٧]:

يا أخي يا جُبيرُ ناشدتُك اللـ ـه انتَدْ بالعيال والأطفال
واكتفلْ بالذين لم يبلغوا الحلـ ـم ولم يدركوا حدود الرّجالِ
هبْك أني قد متّ هلْ لعيالي في جميع الأنامِ غيرك كالي

وتغمر ابن عقيل مشاعر الأنفة وهو يتحدث عن تألب قومه عليه، وعدم إنزالهم إياه المنزلة التي تليق به:

هلْ رسولٌ عني يبلّغ قومي من عقيلٍ أولي النّهى والفعالِ
أنني غير قاطنٍ في بلادٍ لا يراعي في مثلها أمثالي

لستُ آسى على فراق بلادٍ تُلبسُ الهرَّ بزَّةَ الرِّئبالِ

ويتحدث الشاعر بأسى عن تبدل أبيه عليه وجفوته لأبنائه:

وأبوك امرؤٌ عليه فراقي هيِّنٌ، وهو لا يودّ عيالي
ألمثلي يكون هجرٌ ويُلقى يا ابن أمي يوماً بوجه مُذالِ

وقد ظل ابن عقيل مدّة إقامته في مصر جواباً على أبواب أولي الأمر من ملوك بني أيوب ووزرائهم وغيرهم من زعماء الصعيد، متكلّفاً جهامة الغربة، آملاً في أن يكتسب بشعره مكانة عند ممدوحيه. وقد تحقق له شيء من هذا الأمل عندما أدناه الملك المعظم عيسى إليه، غير أن بعض المصريين ربما لم يكونوا راضين عن الشاعر، فاستطار الهجاء بينه وبين بعض شعرائهم، كما سنرى فيما يُستقبل من هذه الدراسة، مما جعل بعض أصدقائه يُسدي إليه النصيحة بأن يغادر مصر، ويعود إلى أهله ودياره، وفي ذلك يقول ابن عقيل[٨]:

وقائل خلِّ مصراً والثّواء بها فيم المقام ولا أهل ولا ولدُ
وقد تعطلتَ من أشياء، قلتُ له: ما ضرّ عطلة جيد زانه الجيدُ
تاللّه لا رمتُ عن مصر ولا وخدتْ إلى سواها برحلي عرمسٌ أجدُ

ومع أنّ الأبيات السابقة تصور تشبث ابن عقيل بالإقامة في مصر، فإن مشاعر الحنين كانت تلج به، فيفقد صلابته التي كثيراً ما تظاهر بها، فتجري على لسانه أبيات الشوق، كما في الأبيات التالية التي قالها سنة ٦٠٨هـ[٩]:

معاهد لهوي بأرضِ السّواد سُقيت أفاويق درّ العهاد
وحيّا ربوعك صوبُ الحيا بغيثٍ يُغاث به كلّ صادي
ليالي بها من خيول الصّبا أروضُ إلى اللهو صعب القيادِ

وكـــفُّ الرَّجـــاءِ جناهـــا المنـــــى ودوحُ الرِّضـــا مثمـــرٌ بـــالوداد

وليس من اليسير تعيين السنة التي غادر فيها ابن عقيل بلاد الشـــام إلـــى مصر، أو تحديد الفترة التي قضاها في مصر تحديداً دقيقـــاً، بيـــد أنـــه يمكـــن الاستئناس بتواريخ بعض القصائد لرسم إطار تقريبي للفترة التي قضاها الشـــاعر في مصر. فأول قصيدة وصلت إلينا، مما قالـــه فـــي مصـــر، مؤرخـــة ســـنة ٦٠٦هـــ[١٠]، وقد تلاها عدد من القصائد مؤرخة بالسنوات ٦٠٧ و٦٠٨ و٦٠٩ و٦١٠[١١]. وربما يصح لنا أن نقول اعتماداً على هذه التواريخ لعل الشاعر كان في مصر في الفترة التي تقع بين سنة ٦٠٦هـــ وسنة ٦١٠هـــ.

ويُستشف من شعر ابن عقيل أنه تلا هذه الفترة التي استقر فيها في مصـــر فترة من التنقل بين مصر والشام؛ إما ملازماً الملك المعظم عيسى فـــي جهـــاده وأسفاره، وإما منتجعاً ملوك بني أيوب وغيرهم من الأمراء متكسباً بشعره. ولعل هذه الفترة امتدت من سنة ٦١١هـــ إلى سنة ٦١٧هـــ تقريباً؛ ففي سنة ٦١١هـــ أنشد الملك المعظم عيسى قصيدة هنأه فيها بفتح حصن صرخد[١٢]، وفـــي ســـنة ٦١٢هـــ بعث من ظاهر بيت جبرين قصيـــدة إلـــى الخليفـــة العباســـي ببغـــداد مادحاً[١٣]، وفي سنة ٦١٣هـــ مدح صاحب صفد بعدة قصائد[١٤]، ومـــدح فـــي السنة نفسها متولي الطور، كما هنأه بالعيد سنة ٦١٤هـــ[١٥]، وفي سنة ٦١٥هـــ مدح أحد الأمراء بظاهر دمياط[١٦]، وفي سنة ٦١٦هـــ مدح الملك المعظم فـــي بانياس[١٧]، وفي سنة ٦١٧هـــ أرسل من دمياط قصيدة إلى الملك الأشرف شـــاه أرمن يستحثه على الجهاد، ويصف ما أصاب المدينة على أيدي الفرنجة[١٨].

ولم يرد فيما وصل إلينا من شعر ابن عقيل قصائد مؤرخة بسنة ٦١٨هـــ، غير أنه يلاحظ له نشاط شعري واسع في سنة ٦١٩هـــ، وقد كان هذا النشاط في شمال بلاد الشام والجزيرة[١٩]، ولعل هذا يشير إلى أن الشاعر كـــان فـــي تلـــك الأنحاء سنة ٦١٩هـــ.

وليس في شعر ابن عقيل قصائد قالها سنة ٦٢٠هـ، وربما لم تصل إلينا. وفي سنة ٦٢١هـ قال - وهو في الجزيرة - بضعة أبيات يصف فيها مطراً وبرداً[٢٠]. وفي سنة ٦٢٢هـ أو ٦٢٣ توفي ابن عقيل بدمشق، ودفن بمقابر باب الصغير[٢١].

والسياق العام لشعر ابن عقيل يدل على أنه شاعر جوّال متكسب، وأنه ظن أن الشعر هو مفتاح الرزق، لذلك ظل يوالي التنقل على أبواب أولي الأمر يستجديهم بمدائحه، راجياً أن ينتشلوه من وهدة الفقر والحاجة، كما في قوله مخاطباً الملك الكامل[٢٢].

يا ناصر الدين الذي أمامُه ... لا يشتكي العافي بها الإقلالا
وافى إليك العامريَ تقوده الـ ... ـآمال يا من ينجحُ الآمالا
أو هل يجوز لشاعر مثلي يرى ... لسواك من هذا الورى تسآلا

ويتخذ ابن عقيل التذلل وسيلة للاستشفاع، فيستكثر ذكر حاجته، وحاجة أبنائه الصغار، وغربته عنهم كما في قوله مخاطباً الخليفة العباسي[٢٣].

من مبلغٌ عنّي وإن بعُد المدى ... مني أمير المؤمنين سلامي
فقري وعائلتي يعوقاني معاً ... من أن أسير إلى المقام السامي

وتولّد لدى الشاعر عن هذا التنقل المصحوب بالسؤال إحساس بعدم الطمأنينة، فبدا في شعره إنساناً قلقاً لا يستشعر لحظة من أمن أو سكينة؛ لذا ألح في شعره على حاجته إلى الملاذ الآمن والممدوح الذي يوفر له حظاً من الاستقرار، كما في قوله وقد استقر به المهاد في ظلال الملك المعظيم عيسى[٢٤].

أرحتُ عيسِ رجائي مذ وقفت بها ... لدُنْ جنابك منْ أينٍ ومنْ تعبِ
هذا مقامُ أمانٍ لا يُخاف به ... أجرٌ به خائفاً من دهره الأشبِ

ولكن الشاعر لا يلبث أن يقع في صراع مرير بين حاجته وبين اعتزازه بنفسه وإحساسه بكرامته، فتند عنه بعض الأبيات التي تصور معاناته النفسية وهو يقف على أبواب الممدوحين، كما في قوله مخاطباً الملك الكامل[٢٥]:

فصُنْ بقايا ماءِ وجهي فلقدْ أرقتُ منه بالسُّؤال ما كفى

ويبدو هذا الصراع أكثر وضوحاً عندما يقترن بافتخار الشاعر بنفسه، وحديثه عن وحدته، وغربته، وقسوة الدّهر عليه[٢٦]:

متى قرّب الدهرُ لي واحداً رماني الزّمانُ بسهم البعادِ
وذلك أنّي أهولُ الزمان بمجدي فما يأتلي في عنادي
علمتُ به واغْتدى جاهلاً لطارف مكرمتي والتلادِ
فأفردني يبتغي شقوتي وإن نعيمي في الانفرادِ
أنيسي كتابي في وحدتي وعزمٌ وعضبٌ طويل النّجادِ

لذلك حث الشاعر نفسه على التجمل بالصبر أملاً في انجلاء عتمة الليل[٢٧]:

تصبّرْ إن عُقبى البؤس نُعمى فأحوال الليالي تستحيلُ
فما يجلو ظلام الهمّ إلا ضياء العزم والرأي الأصيل

وإذا بحثنا في شعر ابن عقيل عن تصوُّر فلسفة في الحياة أو نظرة شمولية لها فإننا لا نظفر إلا بأبيات حكمية، مستمدة من التجربة تصور نظرة غير راضية عن الحياة والأحياء، على شاكلة قوله[٢٨]:

والدّهر إن وهب استردّ وإن شفى أودى وإنْ صان الوجوه أذالا
لا الناسِ تصدقهم ولا الطمع الذي جُبلوا عليه يُنجحُ الآمالا
والحر يهدمه المَلامُ كمثلما باللوم يزداد اللئيم ضلالا

وهذه النظرة غير الرّاضية قد تستحيل في سياق آخر دعوة إلى اهتبال الفرص للاستمتاع بملاذّ الحياة، والاستغراق في اللهو لتناسي الهموم[٢٩]:

فاشربْ وجفنُ الحادثات نائمٌ والعيشُ غضٌّ والزّمانُ غِرُّ
وصرفِ الهمّ بصرف شُربها به يلذّ العيشُ وهْو مُرّ

ديوانه:

لابن عقيل الزّرعيّ ديوان كتبه بخطّ يده، ولكن هذا الديوان لم يصل إلينا كاملاً، وإنما وصلنا مختار منه يقع في تسع وتسعين ورقة. وقد اختاره لنفسه محمد بن محمد بن شرف الزّرعي سنة ٧٤٨هـ، وذكر أنه حذف من الديوان الأصلي نحو ألف وخمسمئة بيت. ويوجد من هذا المختار نسخة خطية واحدة محفوظة في (طوبقبوسراي) بتركيا[٣٠]، وعن هذه النسخة يوجد شريط مصور في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

ويضم المختار من ديوان ابن عقيل الزرعي ثلاثاً وتسعين قصيدة ومقطوعة، غير أن الذي اختار الديوان لم يورد القصائد كلها كاملة وإنما كان يجتزىء من بعضها ما يناسب ذوقه، ومع ذلك فإن هذه القصائد المختارة تدل على المجالات الكبرى لشعر ابن عقيل وتصور سماته الفنية وسأدرس هذه القصائد ضمن إطارين كبيرين هما:

- الأغراض الشعرية.
- السمات الفنية.

أولاً: الأغراض الشعرية:

١- **المدح:** استغرق المدح قدراً كبيراً من الجهود الفنية لابن عقيل الزرعي. وقد سبق أن أشرنا إلى أن شاعرنا هذا قد لازم حضرة الملك المعظم عيسى وأن له فيه مدائح كثيرة، غير أن ذلك لم يكن ليمنعه من مدح آخرين. وبعد مراجعة المختار من ديوانه تبين أن عدد القصائد التي قالها في الملك المعظم تسع عشرة قصيدة، وكانت بقية مدائحه موزعة على عدد آخر من حكام العصر معظمهم من ملوك بني أيوب، مثل الملك العادل والملك الكامل والملك الأمجد بهرام شاه والملك العزيز عثمان. وبالإضافة إلى هؤلاء مدح ابن عقيل الخليفة العباسي بقصيدة أرسلها إليه سنة ٦١٢هـ، كما مدح عدداً من الوزراء والعمال وزعماء القبائل في مصر والشام.

وقصيدة المدح عند ابن عقيل تترسم خطا قصيدة المدح العربية بتقاليدها المعروفة ولا تكاد تحيد عنها. وكأن الشاعر كان يضع أمام عينيه نموذجاً لمثل أعلى ويورد لممدوحه من الصفات ما يخيل به للسامعين أنه كذلك، آخذاً بعين الاعتبار أمرين اثنين: أن يوائم بين الممدوح والصفات التي تخلع عليه، وأن يبرز صفة أو صفات مميزة في ممدوح دون آخر، فهذا شجاع. وذاك كريم، وذاك عادل .. وقد تجمع هذه الصفات في سياق واحد معا مع تحد للواقع. وسأكتفي بعرض نموذج واحد على هذا النهج التقليدي في المدح، وليكن هذا النموذج قصيدة في الملك الكامل، ومطلعها[٣١]:

إن سُلّ سيفُ الهجر من غمد الجفا فاذرع الصّبْر الجميل والوفا

تغزل الشاعر فيها بخمسة وعشرين بيتاً، ثم تخلص إلى المدح بثلاثة أبيات، ثم جاء المدح في (٦٧) بيتاً. وقد شكا الشاعر في أبياته الغزلية من صدود حبيبه عنه، وهجره له، وحث نفسه على التجمل بالصبر. ثم يخلص من هذه الشكوى إلى وصف جمال هذا الحبيب، فيطيل في ذلك. ولم أتبين الغاية التي كان

يرمي إليها الشاعر من هذا الغزل، ولا الأجواء النفسية التي أراد أن ينشرها وأغلب الظن أن لا غاية للشاعر إلا إظهار البراعة في وصف المحاسن، لذلك نجده يستطرد ويتفنن في هذا الوصف، كما في قوله:

أقام من أصداغه عقاربا تحرسه من لحظنا أن تُقطفا
ما أنكرتْ أجفانه سفْك دمي إلا أتاني حدُّه معترفا
خد به جمرٌ من الحُسْنِ طفا من فوقه ماءُ الحيا وما انطفا
كأنّ في فيه لدى ابتسامه برقاً أضاء أو جُماناً أُلِّفا
يصلي بنيران الصدود من ثوى عليه في دين الهوى مُعتكفا

وعلى الرّغم من هذه النيران فإن الشاعر سيظل مقيماً على هذا الحب ولن يطلب من دونه منقلباً، تماماً كما سيظل مقيماً في حضرة الملك الكامل ولن يبغي من دونه مصرفاً. وهنا يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح تخلصاً جميلاً، ويغدو في مواجهة ممدوحه، ويأخذ في الثناء عليه، فيختار له من الصفات ما يليق بالملوك، فينوه بعدله، وشدة بأسه، وذكاء قلبه، وقوة دولته، وكرمه الذي لا تداخله منّة ولا يفسده أذى:

ليثٌ من استكفاه في خطب كفى غيثٌ إذا شيم لجدب وكفى
وردُ النَدى من راحتيه بالجدى من كدر المنّة والمطل صفا
أظهر آياتِ سماحٍ أرّختْ بمُعجز المعروف منها صُحفا

ويجنح ابن عقيل إلى المبالغة في تقريظه للملك الكامل، وهي مبالغة مردُّها محاولة الشاعر أن يأتي بالجديد، كما في قوله:

تكادُ من سطْوته الأنجمُ أن تسْ ـقط والأرضون أن ترتجفا
لو أمر النهار والليل بأنْ يتّفقا طول المدى ما اختلفا
والبحر يوماً لم يمجّ والنّار لمْ تحرق أو الرّيح أبت أن تعصفا

وحين يتحدّث الشاعر عن زيادة النيل وحضور السلطان بالمقياس تستدعي كلمة (النّيل) الحديث عن نيل الممدوح وكرمه، فيقول:

نيلُك يستعلي على النيل إذا ما النّيل في المدّ تناهي وطفا

والأمر الذي يستوقف القارىء في هذه القصيدة حديث الشاعر عن (حُسْن) الممدوح، وربطه بـ (يوسف) عليه السلام، ولا سيما أن هذا الربط مما شاع في الغزل بالمذكر آنذاك. ولعل هذا يشير إلى تبدل في بعض المثل والقيم.

وإذا أعدنا النظر في القصيدة فإننا نلاحظ أن الشاعر لم يأت فيها بشيء جديد فيما يتعلق ببنائها ومضمونها؛ فالنسيب الذي جاء في مقدمتها تقليدي، والصفات التي خلعها الشاعر على ممدوحه كانت في مجملها مما اعتاد الشعراء ذكره. غير أنه لا بد أن نقرر أن النفس الشعري الذي كان يبثه ابن عقيل في قصيدة مدحية قد يختلف – أحياناً – عنه في قصيدة أخرى، ومن ثم فإن بعض مدائح ابن عقيل وإن تشبث بالشكل التقليدي فإن الشاعر كان يتصرف بأدوات هذا الشكل بحيث ينأى به عن التقليد الذي يلغي شخصيته الفنية من ناحية، ويقطع القصيدة عن مناسبتها من ناحية ثانية. وسأضرب مثلاً واحداً أوضح به ذلك، وهو قصيدته التي قالها يمدح أحد زعماء القبائل العربية في (قوص) ويودعه سنة ٦٠٨هـ، ومطلعها[٣٢]:

اربعْ وسلْ عن آل سلمى المربعا واجزع فحقٌ لذي الهوى أن يجزعا

وقد تغزل ابن عقيل في مقدمة قصيدته بفتاة بدوية من بني عامر، ومما قاله فيها:

أو بعْدَ بعْدِ العامريّة تبتغي صبْراً وتذخرُ للنوائب أدمعا

كـــلا وقلبـــك يـــوم ودّع أهلهـــا للجســم مــن شــغف عليهــا ودّعــا

ابن عقيل يمدح زعم قبيلة عربية، وهو يودع هذا الممدوح، ومن ثم أشاع في مقدمة قصيدته أجواء بدوية، فذكر سلمى وربعها، والعامرية ورحلها، وصور جزعه لفراقها، وحزنه لابتعادها. ولعل الشاعر أراد أن يبسط أمام هذا الممــدوح الذي يسكن البادية أجواء ألفها. كما أن المعاني التي وردت في هذا الغزل (وهي تدور حول الوداع والرحيل والبعد) تنسجم ومناسبة القصيدة، وكأن ابـــن عقيـــل يشير بذلك إلى فراقه لممدوحه، وتوديعه له، وما يستثيره ذلك في قلبه من مواجد وأشواق.

وقد واءم ابن عقيل بين الممدوح والصفات التي خلعها عليه مواءمة دقيقة، فمدحه باعتباره زعيم قبيلة، إذ قرنه بالمثل الأعلى للكرم عند الإنســـان العربـــي (حاتم)، وأثنى على الدور الذي نهض به في تأثيل أمجاد قبيلته ومفاخرها، وشكر له ولقبيلته حسن الضيافة وكرم الوفادة:

أثّلت مجـــد بنـــي الفضيـــل ومجدُهـــم يعلو علـــى النجـــم المحـــلّ الأرفعـــا
طـــالت بمجدهـــم قضاعـــة واغتـــدى روض المنـــاقب فـــي بلـــي ممرعـــا
جاورتهم زمن المصيـــف فلـــم تـــزلْ فـــي نعمـــة حتـــى قضيـــت المربعـــا

أما خاتمة القصيدة فهي شكوى من الأيام التي قضت بـــالرحيل وحكمـــت بالفراق، وعهد من الشاعر أن يظل وفياً لممدوحه، ذاكراً له، دائم الثناء عليه:

إن ترضنـــي الأيّـــام باللقيـــا فقـــد أغضبْننـــي لمـــا أتيـــتُ مودّعـــاً
أشكو إلى اللـــه التبـــاعد عنـــك مـــن بعـــد الدنـــو لعلّهـــا أن تنفعـــا
واللـــه لا زال المديـــح مؤبّـــداً منّـــي، ولا كـــان الجميـــلُ مضيّعـــا

ولم يُضف ابن عقيل في هذه القصيدة إلى طبيعة الموضوع الشعري أي جديد، ولكن الجديد هو تصرف الشاعر بأدوات المدح على نحو كفل له الإجادة، فقد بعث في القصيدة لوناً من الشعور ينبثق من مناسبتها، وقد لون هذا الشعور مقدمة القصيدة وموضوعها وخاتمتها.

وترتبط قصيدة المدح عند ابن عقيل الزرعي - كغيره من شعراء عصره - بأحداث الصراع بين المسلمين والفرنجة، ومن ثم فإن بعض هذه القصائد يتنفس في جو ديني، ولا سيما حين يستعير الشاعر الألفاظ المتعلقة بعقيدة الطرفين المتصارعين، كما في قوله من قصيدة يذكر هزيمة الإفرنج في دمياط سنة ٦١٦هـ[٣٣]:

نكَسْتَ صُلباً لهم من بعْد ما رُفعتْ ... إنّ الصليب بحمد الله مكسورُ
وقابل الإفك والتثليث إذ كفروا ... لديك للحقّ تهليلٌ وتكبيرُ
وما تلا النّصر من آياتهِ سوراً ... إلا وذلّتْ لديهنّ التّصاويرُ

وتغدو المعاني الدينيّة أكثر وضوحاً حين يستجيش الشاعر المشاعر الإسلامية، ويحث على الوحدة لمواجهة الخطر الداهم، كما في قوله مخاطباً الملك الأشرف شاه أرمن، ويستعجله أن يرسل جيوشه إلى أخيه في مصر[٣٤].

ناداك عيسى فاستجب لدعائه ... أسْعِفْه أنت اليوم أفضلُ مُسْعف
فلو انّك الدّاعيه لبّى مُسرعاً ... بالمشرفيّة والرّماح الرُّعّف
دمياطُ مصر، ومصرُ أرمينيّةٌ ... والخصمُ أنْت، وقد حكمت فأنصف
كم مسجد بالثغر أضحى بيعة ... يُتلى بها الإنجيلُ بعد المصحف
ومنابر أضحتْ صوامع مشرك ... بالله بعد مؤذّن متحنّف
رفعوا بها القدّاس بعد تلاوةٍ ... وتبدّلت بعد الخطيب بأسقف

ويضفي ابن عقيل على قصائده غلالة من الفرح والاستبشار حين ينظر

من خلال عزيمة ممدوحه وانتصاراته إلى المستقبل بثقة وأمل، فيرى أن فتح البلاد التي يسيطر عليها الغزاة بات وشيكاً، كما في قوله يخاطب الملك المعظم(٣٥).

فلتفتحنْ صوراً وعكةَ عنوةً ولتهزمنّ الكفر وهو رعالُ
ولينظرنّ بلادَ أنطاكيّةً ولهُ على أطلالها أطلالُ
ولِيحكمنّ السيفَ في فرسانها حكماً به المغبونُ ليس يُقالُ
فانهض لتفتتح البلاد بعزمةٍ حذاء ليس تهولها الأهوالُ

٢- **الغزل**: لم يُفرد ابن عقيل الزرعي فيما وصل إلينا من شعره قصيدة خالصة للغزل، وكل غزلياته التي بين أيدينا جاءت في مقدمات قصائده. وهذا الغزل ليس نسيباً بامرأة معينة، وإنما هو أشواق مبهمة وحنين إلى الجمال العربي، ونفحات وجدانية تقترب من غزل العذريين، كما في الأبيات التالية التي يركز فيها على الحنين بذكر نجد(٣٦):

أعدْ ذكرَ نجدٍ والمقيمينَ في نجدِ فلولا هوى نجدٍ صحوتُ من الوجدِ
فإنّ صبا نجدٍ يهيجُ صبابتي إذا هاج ريّاها عن البانِ والرندِ
وليس حنيني للديار وإنما حنيني إلى عيشٍ مضى لي بها رغدُ
سقى اللهُ أيامَ الصبا وعهودها ومعهد هندٍ باللوى صيّبُ العهدِ

ويحاكي ابن عقيل في هذا الغزل طريقة العرب الأوائل محتذياً نهج الديلمي والشريف الرضي، فتحسّ أنّ نفسه ترفّ بوجدٍ غائمٍ على شاكلة هذا الوجد الذي تسري فيه روحٌ بدويّة:(٣٧)

شجاهُ في الأيكِ الحمامُ إذْ شدا فأتهم الشوقُ به إذْ أنجدا
أذكرني ميّاً وأيامَ اللوى والدهر لم يمددْ إلى البينِ يدا
أيامَ لا أُصغي إلى معنّفٍ ولا أُطيع في الهوى مفنّدا

أذهلنـــي البيـــنُ الّـــذي ولّهنـــي فـــأوهن القلـــب وأوهـــى الجســـدا

وحتى يحقق ابن عقيل لشعره ما يريد من سمات بدوية فإنـه يعمـد إلـى وصف ظعائن المحبوبة، وتصوير مشاهد ارتحالها، معبراً عما يمور في صـدره من عواطف ومشاعر، وما يشتعل في قلبه من أحزان ومواجد [٣٨]، كمـا يقـف على ديار المحبوبة بعد رحيلها، فيصف ما فعلته بها الأيام، ويعـرض لآثارهـا الباقية دون تفصيل، مسترجعاً ذكرياته الجميلة فيها، وما تستثيره هذه الذكريـات في نفسه من أشجان، كما في قوله[٣٩]:

عـرف الغـرام وأنكـر الأطـلالا إذ لم تُجـب عنـد الخطـاب سـؤالا
لمّـا توسّـم مـن سـميّة معهـداً عفـت العهـادُ محلّـه أحـوالا
لعبت به أيـدي الخطـوب ونـاوحتْ فيـه الصّبـا عنـد الهبـوب شـمالا
جـرّتْ عليـه ذيولهـا ولطالمـا جـرّت بـه البيـضُ الدُمـى أذيـالا
فتوحّشـت بعـد الأنيـس عراصُـه والدّهـر يعقـب بعـد حـال حـالا
كـانت محـلاً للأحبـة قبـل مـا يُقصـي التفـرّقُ أهلهـا الحُـلاّلا

وإذا ما تمعنا غزل ابن عقيل وجدنا أنه يطيل الحديث فيـه عـن البعـد، والهجر، والفراق، والرّحيل، إلى غير ذلك من المعاني التي تتصل بتغير الأحوال وتبدل الأحبة. ولعل ذلك بتأثير من نزوح الشاعر عن وطنه، وتبدل قومه عليه؛ لذا فإن هذا الغزل يقترن بالحنين والاشتياق والشكوى والدعـوى إلـى التجمـل بالصبر على تقلبات الدهر[٤٠]:

لـولا التعلّـل أنّ الشّـمل يجتمـع لكـاد قلبـي لوشـك البيـن ينصـدعُ
وكيف يطمـع قلبـي بالبقـاء وفـي حُكم الوفـا مالـه فـي سـلوة طمـعُ
جزعـتُ للبُعـد يـوم البيـن بعدكـم وآفـةُ العاشـقين البيـن والجـزعُ
أنكى فؤادي هوى أبكى الجفـون دمـاً وشاب للهجر فـودي والهـوى يفـع

كيف الخلاصُ لصبٍّ من صبابتِه أنصاره الشّوق والبلوى له شيعُ
طيف الكرى خُلسٌ في مقلتيه كما سروره مذ نأى أحبابُه لُمَعُ
ما زال يسفح ذكرُ السّفح عبرتَه ويعتريه لذكرى جزعه الجزعُ
خفّض همومك لا المحتوم منصرفٌ إذا حذرتَ ولا ما فاتَ يرتجعُ

وإذا ما انتقل الشاعر للحديث عن جمال المرأة فإن المحاسن التي تغنى بها لا تخرج عن المقاييس الجمالية التي ذكرها الشعراء السّابقون، إذ نراه يترسّم خطاهم، ويحاكي أطُرهم التي رسموا من خلالها جمال المرأة ومحاسنها، كما في قوله متغزلاً بإحدى الحسان واصفاً امتلاء ردفيها، وحسن شفتيها، وتأود قامتها، وفتك نظراتها، وإشراق وجهها، وسواد شعرها، واتساق أسنانها، وعذوبة ريقها(٤١):

وبمهجتي ريّا الرّوادف طفلةٌ لعساء لمياء المراشف رودُ
سمراءُ كالسّمراء، في أجفانها بيضٌ صياقلها العيون السُّودُ
صنمٌ من الحسن البديع جمالُه في دين متّبع الهوى معبودُ
فمن الغزالة حسنُها وضياؤها ومن الغزال ذفاره والجيدُ
فالوجه صبحٌ والذّوائب غيهبٌ والثّغر درٌّ، والرضابُ برودُ

ولا تكاد الصّور التالية التي رسمها ابن عقيل لإحدى الجميلات تختلف عن الصور التي رسمها في الأبيات السابقة إلا في طريقة التعبير(٤٢).

إنْ أسفرتْ حكت الغزالة بهجةً أو أتلعت مثلت لديك غزالا
وإذا رنت بعثت إليك لحاظها عن قوس حاجبها الأزجّ نبالا
تاهتْ على مُلد الغصون بقدّها هيفاً، وأخجلت البدور كمالا

وثمة نمط آخر من الغزل في شعر ابن عقيل الزرعي هو الغزل بالمذكر

وأغلب الظن أن هذا الغزل جاء مجاراة لذوق العصر الذي كثر فيه التغزل بالولدان الأتراك، ولعل ذلك يدل على تبدل في الذوق الجمالي في بلاد الشام في تلك الفترة. ومع ذلك فإن الصفات الجمالية التي أوردها ابن عقيل وهو يتغنى بالجمال المذكر لا تكاد تخرج عما هو مألوف في التغزل بالمرأة، كما في الأبيات التالية التي يصف فيها أحد الغلمان الأتراك، مصوراً رقة جسمه، وحمرة خده، ولين قامته، وحسن وجهه؛ فجمع بذلك كله آيات الجمال المعجزة[٤٣]:

وأسمر من بني الأتراك قد تركت ... صفاته عاشقيه في الورى سمرا
أطعته فعصى، لاطفته فجفا ... أدنيته فنأى، واصلته هجرا
يكاد من رقة بالفكر تجرحه ... وبالعيون ترى في جسمه أثرا
الله أظهر آيات الجمال به ... ومعجز الحسن لا يخفى إذا ظهرا
فالماء والنار في خديه قد جمعا ... كثغره جمع الياقوت والدررا
إذا تثنى أراني قده غصناً ... وإن تجلى أراني وجهه قمرا

ولعلّ الأمر الطريف في غزل ابن عقيل بالمذكر أنه كان يشحنه بالدموع والذلة، مضفياً عليه مسحة عذرية في التعبير والتصوير، كما في الأبيات التالية التي حاكى فيها أساليب العذريين، واستعار تعابيرهم وصورهم شاكياً هجر الحبيب، مصوراً تذلله له، ومعاناته من صده، وإخلاصه في حبه، واصفاً نفسه بأنه "العاشق العذري" و "أنه بعث نبياً للمحبة"[٤٤]:

إلام أعنى في الهوى وأعنف ... وحتام يجفو لي الحبيب وأعطف
وأخفي الأسى والدمع يبدي خفيه ... وأنكره والسقم عنه يعرف
ولا ذنب لي في الحب إلا تذللي ... لعزة محبوب يجور وأنصف
عدمت اصطباري في هواه فلم أجد ... سوى الوجد عوناً لي على الحب يسعف
أنا العاشق العذري عهداً وشيمة ... وغيري دعوى العشق عنه تكلف
بعثت نبياً للمحبة داعياً ... إلى الحب عنها من يصد ويصدف
فمعجز آياتي خضوعي وذلتي ... وصبري وأنصاري الأسى والتأسف

يُتيَمني والغـــيُّ رشـــدٌ لـــذي الهـــوى عـــذارٌ موشـــىً، لا بنـــانٌ مطـــرَّفُ

٣- الرِّثاء:

يبدو أن (الموت) لم يكن من الموضوعات الأثيرة لدى ابن عقيل الزرعي، فلم يرد في المختار من ديوانه إلا قصيدتان من شعر الرِّثاء؛ الأولى قالها في رثاء والده، والثانية قالها في رثاء بلاد حوران بعد أن اجتاحها الفرنجة سنة ٦١٤هـ. أما القصيدة الأولى فقد استهلها باستشعار روح الحكمة المستمدة من الموت، والتسليم لحكم الله وقضائه النافذ(٤٥):

إن المنـــون قضاؤهـــا محتـــومُ والمـــوتُ فيمـــا يقتضيـــه زعيـــمُ
واللّـــهُ يحكـــمُ بالفنـــاء لخلقـــه فلـــهُ البقـــا ولحكمـــه التَّســـليمُ
نهب القضا أعمارنـــا بصروفـــه الـــ ـمُسْـــتيقظات ودأبُنـــا التَّهويـــمُ

وتغمر الشاعر روح تشاؤمية وهو ينظر إلى ظواهر الحياة التي تخضع لقانون التحول والتغير، فيرى أن كل ظاهرة تحمل في حقيقتها ضدها ونقيضها:

فالشَّـهدُ سـمٌّ، والدنـوُّ تبـاعدٌ والوصْـلُ هجْـرٌ، والنَّسيم سـمومُ
فسـحابها بالنائبـات سـجومُ وعقابهـا بالقارعـات تحـومُ
ولـدتْ لتقْتُـل ولدهـا بعقوقهـا يـا ليتهـا قبـل الـولادِ عقيـمُ

ويصور الشاعر فجيعته بأبيه، غير أن هذا التصوير لا ينقل لنا لوعة الفقد وعمق التأثر بفراق الأب. ويبدو أن استعجال الشاعر الحديث عن رضى والده عنه، ووفادته عليه وهو في مصر، ووفاته في أثناء تلك الوفادة قد صرفه عن استخراج مكامن الحزن الخفية، وجعله يستطرد في الحديث عن العلاقة بينه وبين أبيه:

للّـه رزنـي فـي عقيـل إنّـه رزءٌ جليلٌ مـا علمـتُ عظيـمُ
وافيـت مصـر مهـاجراً لزيـارتي إنْ أخلفـت زمـن الجـدوب غيـومُ
ورضيت عني بعد سـخطك واصـلاً منّـي عفوقـاً شـمله مصـرومُ
وصفحت عن ذنبي وإجرامـي الـذي أسديتُ، إذ أنـا فـي الظـلام أهيـمُ
وقضيـت نحبـك صائمـاً متشـهّداً لتنـال أجْـر اللّـه، وهـو عظيـمُ

ويذيّل الشاعر قصيدته بأبيات يسلّي فيها نفسه، فيقف في مواجهة المـوت مفتخراً بأنه ابن لهذا الأب، وفرع له، واستمرار لوجوده:

أنـا بـدرُ ذاك النّجـم عنـد أفولـه أنـا شـبل ذاك الضيغـم اللهميـمُ
أنـا فـرعُ نبعتـه التـي لنجارهـا فـي دوحـة المجْـد الأثيـل صميـمُ

وأما القصيدة الثانية التي قالها ابن عقيل في الرّثاء، فهي كمـا سـبق أن ذكرنا في رثاء بلاد حوران، وأرى أن تُثبت القصيدة كاملة لقيمتهـا التاريخيـة والفنية. فهي من الناحية التاريخية تتحدث عن اجتياح صليبي شامل امتد من بلاد حوران إلى أقصى جنوب بلاد الشام، وهو اجتياح لم تتحدث عنه المصادر على النحو الذي صوره ابن عقيل في القصيدة[٤٦]. وهي -أي القصيدة- من الناحيـة الفنية تعد إضافة جديدة إلى شعر الرّثاء البلداني الذي قيل في فـترة الحـروف الصليبية، إذْ إنّ ما وصل إلينا من هذا الشعر كان قليلاً إذا ما قـورن بالنكبـات الكبرى التي منيت بها البلاد الإسـلامية[٤٧]. والقصيـدة تجـري علـى النحـو التالي[٤٨]:

جار الزّمـان علـى سـكّان حوْرانـا لا كان دهرٌ قضى بـالجوْر لا كانـا
أخْنى وخان وقـدْ كـان الوفـيّ لهـمْ لا غروْ للدّهـر إن أخْنـى وإن خانـا
صاح الجلاءُ بهم صوتـاً فمـا لبثـوا أنْ جـاوبُوه جماعـات[٤٩] ووحدانـا
فأصبحتْ دمنـاً تلْـك الربـوعُ لهـمْ وبدّلـت بعْدهـمْ بومـاً وغرْبانـا

ظننتُ أنّ قُراهُم بعدما درستْ ... أطلالُ مي وأنّي كنتُ غيلانا
دهلتُ من أسف حين استقلّ بهم ... حادي العبور كأني كنتُ سكرانا
واخجلتي بعدهم إن لم أمُتْ كمدا ... مُذ أزمعوا للنوى رحلاً وركبانا
تفرّقوا بالفلا أيدي سبا فثوى ... نجعٌ بمصر ونجعٌ حلّ حرّانا
وما استقلّوا إلى أن قلّ صبرهم ... وكابدوا المحل في الأوطان أحيانا
إنّ الكريم إذا ما خاف في وطن ... ضيماً تبدّل بالأوطان أوطانا
كانوا يجيرون من جور الزمان فقد ... أضحوا من الجور في الأمصار جيرانا
ليس الهوادج أحداجاً على إبل ... تلك الجنان حوت حوراً وولدانا
الطالعات بدوراً إن سفرن لنا ... والمائسات إذا أقبلن أغصانا
كأنّ أظعانهم والآل يرفعها ... سفائنٌ أشرعتْ أو نخلُ بيسانا
قالوا الغرابُ دعا في الحي فاحتملوا ... وما رأيتُ سوى الأحمال غربانا
لا تندبِ الدار إن أقوت ولا طللاً ... ولا أواريّ "أفراس"[٥٠] وأشطانا
وخلّ ميّة والخلصاء يندبها ... غيلانها وذر "سعدى"[٥١] وحسّانا
وخلّ رامة يبكيها جريرٌ ودعْ ... نصيب يندبُ حيّاً حلّ ودّانا
دع المعاهد فالأعرابُ أجدرُ أن ... تبكي النقا وربى نجدٍ ونعمانا
واندبْ قصور قرى حوران حين خلت ... وعوّضت بعد سكنى الإنس جنّانا
خوتْ عروشٌ بها كانت مرفّعةً ... مجداً، وجفّت غروسٌ كنّ صنوانا
شلّ الزمانُ يد المعروف بعدهم ... وهدّ من جبل العلياء أركانا
كم بين بصرى إلى الرمثا إلى طفس ... من الخراب إلى ما حولَ نجرانا[٥٢]
ولستُ أنسى حبالاً والسراة وما ... أصاب ماب إلى ما حولَ عمّانا[٥٣]
وبعد هذا أتى ما لا مردّ له ... من الفرنج إلى غوريّ بيسانا
أسراً وقتلاً ونهباً حين أذكره ... يهيج تذكاره للقلب أحزانا
كم قرية كان في أكنافها نفرٌ ... يمشون نحو العلى شيباً وشُبّانا
شُمّ الأنوف سراة سادة نُجُبا ... في السلم والحرب أجواداً وشُجعانا
من كلّ أبلج وضّاح الجبين إذا ... بلوتَه كان مطعاماً ومطعانا
يقول من مات منّا كان أسعدنا ... وكلّ من عاش منّا كان أشقانا
ما ذاتُ طوقٍ على أيكٍ الحمى صدحت ... ترجّعُ النوح في الأفنان ألحانا

أقصى الزمانُ لهـا إلفاً فهاج لها فراقُه والنّوى همّاً وأشجانا
كلا ولا مغزل يرعى لها رشأً ببطنِ وجرة رخصَ الظّلف أدمانا
لها كناسٌ من الأرطى على نشزٍ في روضة أنبتتْ رنداً وحوذانا
أناخ صرفُ المنايا فيه إذ غفلت سِمعمعاً أهْرت الشدقين غرثانا
فاغتالهُ وقضاء اللّه ليس لهُ ردٌ، ولا ردّ للمقضيّ أن حانا
لها بُغامٌ شديدٌ حين تذكره إذا رأت عينُها في السّرب غزلانا
يوماً بأوجع منّي إذ وقفتُ على تلك القرى وتذكّرت الذي كانا
ترى يعود إلى الأوطانِ ساكنها فأنظر الدّارس الآيات عمرانا
صبراً على الدّهر إنْ أبكى العيون وإن أنكى القلوبَ وإن أخنى وإن خانا
لا بُدّ في الدهر من عسر وميسرة وأن ترى فيهما سوءاً وإحسانا

والقصيدة، كما هو واضح، تعبير عن الحزن الذاتي لابن عقيل على ما حل بأهل حوران وغيرهم. وقد نوّع الشاعر في أدواته الفنية للتعبير عن هذا الحزن؛ فهو في مستهل القصيدة ينحو منحى التعبير المباشر في تصوير انقلاب الزمن وظلمه لسكان تلك الدّيار. ولم يكد الشاعر ينتهي من ذلك حتى ذهب يصور ما أصاب قرى حوران من خراب ودمار، معبراً عن ذهوله لمشاهد القوم وهم يغادرون ربوعهم، ويجلون عن ديارهم:

صاح الجلاءُ بهم صوتاً فما لبثوا أن جاوبوه جماعات ووحدانا
فأصبحتْ دمناً تلك الرّبوعُ لهمْ وبدّلت بعدهم بوماً وغربانا
ذهلتُ من أسف حين استقلّ بهم حادي العبور كأنّي كنتُ سكرانا
تفرّقوا بالفلا أيدي سبأ فثوى نجعٌ بمصر، ونجعٌ حلّ حرّانا

ويمضي الشاعر في قصيدته فيصور معاناة المسلمين في الديار، ومكابدتهم العدو والقحط معاً مما دفعهم إلى النزوح عن ديارهم، وهنا يجد ابن عقيل الفرصة مواتية لوصف مشاهد الارتحال، وظعائن النساء المسلمات:

ليس الهوادج أحداجاً على إبل تلك الجنانُ حوتْ حوراً وولدانا
الطالعاتُ بدوراً إن سفرن لنا والمايسات إذا أقبلن أغصانا
كأنّ أظعانهم والآلُ يرفعها سفائنٌ أُشرعت أو نخل بيسانا

والمتمعن في الأبيات السابقة يجد أن الشاعر قد أخل بالبناء الفني للقصيدة لأنه استعمل لغة الغزل وهو يتحدث عن المراكب التي تقل النساء المسلمات اللواتي غادرن ديارهن خوفاً من الأعداء. ولعل ابن عقيل كان يضع أمام نظره، وهو يصف النساء الراحلات، مشهد الظعن في القصيدة العربية القديمة، ويستمد منه معانيه وصوره. بل يمكن القول إن النموذج الشعري لبناء القصيدة العربية كان يوجه ابن عقيل، بوعي أو بغير وعي، وهو يبني مرثيته هذه، ومن ثم فإننا نرى الشاعر يستطرد في معرض تصويره أحزانه إلى ذكر الشعراء الذين شُغلوا بهمومهم الذاتية، فوقفوا على الأطلال وندبوا ديار محبوباتهم، وهو مشغول بهموم (الجماعة) وندب (قصور قرى حوران):

لا تندبِ الدّار إن أقوتْ ولا طللاً ولا أواريَ أفراس وأشطانا
دع المعاهد فالأعرابُ أجدرُ أن تبكي النقا وربى نجد ونعمانا
واندبْ قصور قرى حوران حين خلت وعُوضت بعد سكنى الإنس جنّانا

وحين يتحدث ابن عقيل عن المساحة الواسعة التي شملها الاجتياح الصليبي يذكر أسماء العديد من المواضع الشامية في حوران وغيرها بلغة سردية تقريرية، فبدت أبياته لمحاكاتها الواقع وكأنها فقرة من كتاب تاريخ:

كم بين بصرى إلى الرمثا إلى طفس من الخراب إلى ما حولَ نجرانا
ولست أنسى حبالاً والسراة وما أصاب ماب إلى ما حولَ عمّانا
وبعد هذا أتى مالا مردّ له من الفرنج إلى غوريَ بيسانا
أسراً وقتلاً ونهباً حين أذكره يهيج تذكاره للقلب أحزانا

وبعد ذلك يأخذ الشاعر في تصوير أحزانه هذه فيقرنها بنوح حمامة أقصى الزمان إلفها، وبغام غزالة افترس وحش رشأها.

وهكذا، فقد كان هم ابن عقيل – وهو يعبر عن أحزانه تصوير الدمار الذي أصاب منطقة حوران وغيرها من البلاد المجاورة لها، وما ترتب على ذلك من هجرات جماعية لسكان تلك الديار. وقد كان من المتوقع أن يصعد ابن عقيل نغمة الخطاب، ويحث المسلمين على الجهاد ليوازن بهذا التصعيد حالة الانكسار والهبوط التي استعلنت في فاتحة القصيدة وفي أجزائها الأخرى، ولكنه لم يفعل وآثر أسلوباً آخر هو تمني عودة المهجرين إلى ديارهم، والدعوة إلى التجمل بالصبر على نوائب الأيام:

ترى يعودُ إلى الأوطانِ ساكنُها فأنظر الدّارس الآيات عمرانا
صبراً على الدّهر إنْ أبكى العيون وإن أنكى القلوب وإن أخنى وإنْ خانا

٤- الهجاء:

من الموضوعات التي طرقها ابن عقيل في شعره الهجاء. وجلُّ شعر الهجاء الذي تضمنه المختار من ديوانه كان مما قاله وهو في مصر، ولعل ذلك يشير إلى أن بعض الشعراء المصريين لم يرتاحوا إلى إقامته بينهم. ويبدو أن مساجلات هجائية قد دارت بينه وبين أحد الشعراء النحاة في مصر، فانبرى له الشاعر الزرعي يُسفه عقله وشعره[٥٤]:

يا أديباً في الرّأي غير حصيفٍ وسخيفاً أتى بشعر سخيفِ
جاءنا شعرك الثقيلُ المعاني بارداً نظمُه بوزن خفيفِ
ما انتقدنا ما قلت إلا وجدنا هُ على نقده كثير الزّيوفِ
فلهذا كلامُك الفاسدُ الصّيـ ـغة ملغى لعلة التّصريفِ

وكان من الممكن أن تُفهم الأبيات السابقة على أنها مماحكة شاعر، لـــولا أبيات أخرى قالها ابن عقيل في المهجو نفسه اتهمه فيها في غيرته على محارمه، وقذف عرضه، وصور النقائص ممثلة فيه وفي نساء بيته[٥٥].

وممن هجاهم ابن عقيل محمد الواسطي، وكان هذا تعرض له، فتصدى له الزرعي بقصيدة أفحش فيها، إذ حشد كثيراً من الصفات المزرية التي تحط مـــن رجولة المهجو، وتطامن من كرامته، مستعملاً ألفاظاً فاحشة، وصوراً فاضحـــة تصور انحرافه وانحراف زوجه، أجتزئ منها ما يصلح إثباته[٥٦]:

قـــالوا الرَّقيـــع الرَّاويـــةْ قـــد انتحـــى هجائيـــهْ
قلـــتُ لقـــد هـــاج عليـــ ـــه مـــن هجـــائي داهيـــهْ
الأسْـــــدُ لا يضرهـــــا نبْـــحُ الكـــلاب العاويـــهْ
كـــمْ شـــاعر نـــافرني قبلـــك يـــا ابـــن الزَّانيـــهْ
تركـــتُ أمَّ رأســـه عنـــد النَّصـــال هاويـــه

والقصيدة طويلة استعار فيها ابن عقيل كثيراً مـــن الألفـــاظ والـــتراكيب القرآنية بعد أن يحرفها عن مواضعها ليضفي سمة الطرافة على هجائه (أعجـــاز نخل خاوية، قطوفها دانية، نار حامية، عين جارية...). كما تأثر ابن عقيل فـــي هذه القصيدة أبياتاً في الهجاء قالها دعبل الخزاعي[٥٧].

ويتعرَّض ابن عقيل لأحد القضاة في قوص، فيهجوه في غير ما مقطوعـــة هجاءً لاذعاً، فيتناول عرضه وشرفه بعبارات صريحة، ويســـخر مـــن خِلْقتـــه، وينزع عنه وعن قومه لباس الشرف والكرامة، وينسب إليهم صفـــات الخـــزي والعار، كما في قوله[٥٨]:

لأبـــي محمَّـــد بـــن كـــامل غايـــةٌ في اللـــؤم عنهـــا العـــالمون تنكَّـــبُ

قـرْدٌ إذا اسـتقبلت صـورة وجهـه وإذا تولّـى فهـو ثـور أنصـبُ
مِـن نسـل قـوم لا يُنـال نوالهـم حتّـى (....) نسـاؤهم أو يُثلبـوا
بيـع النّبيـذ لباسـهم ومعاشـهم فيـه يحصّـل أكلُهـم والمشـربُ
كـم قـد رأيـتُ بدارهـم مقتولـةً قتلـوا وقـالوا أهلكتهـا العقـرب

ويهجو ابن عقيل خطيب أسوان، فيصور نفور الناس منـه، وازورارهـم عنه، وعدم رغبتهم في الاستماع إليه، دون أن يفوته -كعادته- أن يذّم أخلاقـه ويقرض عرضه، على شاكلة قوله[٥٩]:

إنّ عيسى خطيـب أسـوان أضحـى ضدّ عيسى المسيح فـي المعجـزات
ذاك بعد الممات يُحيـي وهـذا الـ (....) فيـه يمـوت بعـد الحيـاة
قـدره لا يـزال فـي درك والـ ـقـرن منـه أرفـع الدّرجـات

وجملة القول في هجاء ابن عقيل أنّه هجـاء مؤسـس علـى الإفحـاش والإقذاع، مما أبعده عن حقيقة هذا الفن الذي يقوم على طائفة من الأصول الفنية.

أغراض أخرى: ومن الأغراض التي طرقها ابن عقيل في شعره وصـف مجالس اللهو والشراب. ولعل وفادة هذا الشاعر على بعض الملـوك والأمـراء ومخالطته لهم قد أتاحت له الإلمام بمجالس اللهو التـي كـانوا يعقدونهـا؛ فقـد استقضاه الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر سنة ٦١٩هـ أبياتاً يصف فيهـا مجلس اللهو الذي أقامه، وما قُدّم فيه من صنوف المتع[٦٠]. وفي السنة نفسها قال الشاعر أبياتاً وصف فيها الاحتفالات التي أقيمت يوم النوروز، وذكر أنه أخذ فيها بنصيب وافر من اللهو، وأنه قضى ذلك اليوم في أحضـان الطبيعـة الجميلـة مستمتعاً بسماع الأغاني والألحان العذبـة، ومسـتغرقاً فـي شـرب الخمـرة المعتقة[٦١]:

للّـه صُبْحـةُ نـوروز أخـذتُ بهـا أوفى نصيب سـرور فـي نصيبيـن

ما جنّةُ الخلـدِ إلا دون مـا اشـتملتْ على الفواكـه فيهـا والرّيـاحينِ
للـه أوتـارُهن الخـرسِ ناطقـة لنـا بأحسـن إيقـاع وتلحيـنِ
وصلتُ فيها غبوقي بـالصبوحِ علـى شدو القيـان ومزمـار ابـن صفّيـنِ

ويتماجن ابن عقيل حين يصور في أبيات أخرى شغفه بحضور مجـالس اللهو وتهالكه عليها، واصفاً ما في تلك المجالس من قصف وعزف(٦٢):

قسـماً بـالكواعبِ الأبكـارِ وعزيـفِ القيـانِ للسـمّارِ
واغتبـاقِ المـدامِ والليـلِ داجٍ واصطبـاحِ الندمـانِ بالأسـمارِ
واصطحابِ المزمـارِ والـدفّ وهنـاً واصطخـابِ العيـدانِ والأوتـارِ
وبـدورِ السّـقاةِ تعطـي النداميـ ـي بنسـكٍ وعصمـةٍ ووقـارِ مثلَ زهـرِ النجـومِ شـمسِ العقـارِ
لا أبيـعُ الصبـا ولا اللهـو والغـ

غير أنّ الشاعر في وصفه لمجالس الشراب يقف عنـد حـدود المنظـر الخارجي ولا يصور ما تحدثه الخمر في النفس من سـورة ونشـوة وطـرب، ويكتفي بتصويرها وهي تُجلى بالكؤوس، متحدثاً عن قدمهـا، واهتمـام أربـاب الديانات بها. وهو في ذلك كله يستعير صور أبي نواس وتعابيره، كما في قولـه مخاطباً نديمه أن يسقيه(٦٣):

يا نديمي أدِرْ علـى الشّـرب راحـاً شـربها فيـه راحـة الأسـرارِ
جندريـاً تجلـو ظـلام الدّيـاجي حيـن تُجلـى بسـاطع الأنـوارِ
تعـتزي نسـبةً إلـى صيدنايـا أو صريفيـن يـا لـه مـن نجـارِ
كُنهُهـا لا يحـدّ حسـاً وحدسـاً جـلّ مـن دقّـة عـن الأفكـارِ
عظّمتْهـا المجـوسُ لمـا رأتْهـا وهـي مـاءٌ كالنّـار فـي الاستعارِ
وهي عند القـدّاس بيـن النّصـارى وزرٌ مـانعٌ مـن الأوزارِ
حرمـتْ فـي كتابنـا وأُحلّـتْ فـي كتـاب القسـوس والأحبـارِ

وتبدو الروح النواسية أكثر وضوحاً في الأبيات التالية التي يستعير فيها بعض الصور والتعابير القرآنية في سياق دعوته إلى الانغماس في اللهو والاستغراق في المتعة، معبراً عن كلفه بالخمر وولعه باحتسائها، واصفاً صفاءها وكؤوسها وقدمها، مضفياً عليها هالة من القداسة، وهو في ذلك كله -كأبي نواس- يفتح باب الرجاء، يأمل بعفو الله ورحمته[٦٤]:

أدر الكأس بكرة وأصيلا ... وأطع من هويت واعص العذولا
واجعل اللهو والخلاعة دينا ... وتبتل إليهما تبتيلا
واتخذ من تحب إن كنت في دي ... ن الهوى صادقاً عليك وكيلا
واجلُ منها على النَدامى عروساً ... ليس ترضى إلا الكرام بعولا
في إناء كأنه جسم ماء ... فيه روح تخالها سلسبيلا
نورها يجعل الظلام نهاراً ... نارها بالمزاج تطفي الغليلا
عاصرت آدماً ونوحاً وإبرا ... هيم والأنبياء جيلاً فجيلا
اسقنيها فقد رأيت بعيني ... عند بعث الأجساد يوماً طويلا
أنا لولا حسن الرجاء توقعـ ... ـت عذاباً يوم المعاد وبيلا

وقد تأثر ابن عقيل الزرعي بالشعراء العلماء الذين نظموا قواعد العلوم شعراً، فعمل على محاكاتهم وتقليدهم. فقد تضمن ديوانه قصيدة تبلغ مئة بيت تشتمل على كثير من حوشي اللغة، ويبدو أن هدفه من نظمها كان إبراز معرفته بالغريب من ناحية، وإظهار قدرته على صياغة قواعد العلم شعراً من ناحية ثانية، ومن ثم استهلّها بقوله[٦٥]:

أيا من عنده الفهمُ ... إذا ما ذُكر العلمُ
لئن بيّنت ما قد قلـ ... ـتُ في شعري لك الحكمُ
لديّ القولُ والفعل ... وعندي النثرُ والنظمُ

أحـــــلّ المشـــــكلَ الصّعْـــــــــب إذا مـــــا عجـــز القـــدمُ

ثم يـــأخذ الشاعر في طرح الأسئلة المنظومة على شـــخص قـــد يكـــون وهمياً، سائلاً إياه أن يشرح الكلمات الصعبة التي ترد فيها.

ثانياً: السّمات الفنية:

١ – بناء القصيدة:

تقوم القصيدة العربية في الموروث الشعري على طائفة من التقاليد الفنية، وقد أدت هذه التقاليد إلى تعدد الموضوعات التي كان يطرقها الشاعر القديم فـــي قصيدته، ومن ثم فهم النقاد القدماء الوحدة في القصيدة على أنها وحدة تقوم على التكثر[٦٦]. وفي إطار هذا الفهم التقليدي لبناء القصيدة تحدث النقاد عمـــا ســـموه (براعة الاستهلال) و (المخلص) و (الخاتمة)، إذ "الشاعر الحاذق من يجتهد فـــي تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة، لأنها المواقـــف التـــي تســـتعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء"[٦٧].

وقد أخذ ابن عقيل بهذه التقاليد الفنية في كثير من قصائده، إذ كانت تتألف من مقدمة وتخلص وموضوع وخاتمة، ويكفي أن تأخذ أي قصيدة لـــترى هـــذا التكثر في الموضوعات. من ذلك قصيدته التي مطلعها[٦٨]:

أسْرَفْتَ في عذْل صبّ القلب مكتئـــب شفاؤه في اللمى المعســـول والشّـــنب

وهي تقع في ٧٧ بيتاً؛ تغزّل في ١٩ بيتاً، ووصف الخمر ومجلســـها فـــي ١٨ بيتاً، وتخلص إلى المدح في بيت واحد، وجعل للمدح والخاتمة ما تبقى مـــن القصيدة.

غير أن هذا الشكل لم يكن قالباً جامداً يصب فيه ابن عقيل قصـــائده دون

روح، وإنما أفاض عليه -أحياناً- من نفسه، ولونه بمشاعره وانفعالاتـــه (فـإذا ضرب من العاطفة يذيع في القصيدة كلها، ويبدو فـــي مقدمتهـا وموضوعهـا، ويغلب على بقية أجزائها)، ويحقق لها ضرباً من الوحدة والانسجام. مـــن ذلـك قصيدته التي بعثها من مصر إلى أخيه جبير يعاتبه على رحيله عنه، وهـو فـي مصر، دون علمه، وهي مطلعها[٦٩]:

زعمَـتْ مـــيُّ أنّ قلبـــي ســـالِ فاشْـــمأزّت لزُخْـــرفِ الأقـــوالِ

ومع أن القصيدة لم تتناول موضوعاً واحداً، إلا أنه يسري فيها تيار نفسي واحد هو العتاب الذي لا يخلو من حدة. وقد أملى هذا الشعور على ابن عقيل أن يتخير في كل جزء من قصيدته الصور والمعاني التي تعبر عن مكنونات نفســه. فها هو ذا يستفتح القصيدة بنسيب حزين:

زعمَـتْ مـــيُّ أنّ قلبـــي ســـالِ فاشْـــمأزّت لزُخْـــرفِ الأقـــوالِ
عجبـاً لابنـــةِ الجُذيمـــــي إذ لـــمْ فيـــكِ تعْـــصِ مقالـــةَ العـــذّالِ
أعرضـــتْ إذْ رأتْـــكَ طـــوْعَ يديْهـــا فتصـــدّتْ للصـــدّ بعْـــدَ الوصـــالِ
وكـــذا الغانيـــاتُ كـــالدّهرِ لا تبْـــــ ـــقـــي علـــى حالـــةٍ مـــن الأحـــوالِ

فابن عقيل يشكو في هذا النسيب هجر (ميّ) له وإعراضها عنه، وكيـــف أنها استمعت إلى قول العذال الذين أوهموها أنه سلا عنها وتغيّر عليهـا. وكـأن الشاعر يضمن هذا النسيب عتابة لأخيه، وتعجبه من موقفه منه، لذلك أطال فيـه -أي النسيب- إطالة أتاحتْ له إفراغ مشاعره؛ فتحدث عن جمال هذه المحبوبـة التي استهوته وملكت قلبه مع أنه رجل حليم، حتى إذا ما استوثقت من حبّه لهـا هجرته وتركته. لذلك نجده في نهاية هذا النسيب يثور في وجه (ميّ)، ويعلن لها أنه سينصرف عنها وعن أمثالها من الحسان، مبيّناً لها أن الموت فـي ســاحات الوغى أهون عليه مما تعرض له منها. وهنا نجد ابن عقيل يضيق بالتلميح وكتم

عواطفه، فينفجر بالحديث عن نفسه التي تأبى الإقامة بين قومه الذين لم يقدروه حق قدره، معلناً أنه غير أسف على فراقهم، والابتعاد عنهم:

هلْ رسولٌ عنّي يبلّغ قومي ... من عقيل أولي النُّهى والفعال
أنني غير قاطن في بلاد ... لا يُراعى في مثلها أمْثالي
أنا ذاك الشّهم الذي بفراق الـ ... أهل والدّار إن نأى لا يُبالي

ويمضي ابن عقيل في قصيدته بنبرة صاعدة ضارباً لنفسه الأمثال ببعض الرّجال الذين أجبرتهم ظروفهم على مغادرة أهلهم وذويهم، ثم يعود فيوجه الخطاب إلى بنيه مصوراً حبه لهم، وحنينه إليهم؛ فهو لم يرحل عنهم (عن قلى أو ملال)، ولكنه رحل رحيل المضطّر:

ما أبوكم كغيره يألف الضّيـ ... ـم، أبوكمْ ثبتٌ على الأهوال
ذو جنانٍ شهمٍ إذا خامت الأقـ ... ـران، طلْقُ اللسانِ عِنْد النّضال

أما حديثه لأخيه فهو عتاب يمازجه الأسى على موقف والده منه ومن أبنائه:

يا أخي يا جبيرُ ناشدتُك اللّـ ... ـه اتّئدْ بالعيال والأطفال
فأبوك امرؤٌ عليه فراقي ... هيّن وهو لا يودّ عيالي

وينهي الشاعر قصيدته مصرّاً على أن يعيش بعيداً عن قومه، ساعياً وراء تحقيق ذاته:

سوف أسعى والأمر والحكم للّـ ... ـه معاً دائماً على كلّ حال

وهكذا فإنّ القصيدة تتشبّث بالشكل التقليدي، إلا أنّ ابن عقيل صدر فيها عن تجربته الخاصة، واستخرج معانيها من داخل نفسه، وبث فيها لوناً واحداً من الشعور انبثق انبثاقاً دقيقاً من هذه التجربة.

وواضح أنّ الشّاعر لم يلحّ في الحديث عن موقف أخيه وقومه، وإنما اهتم بإبراز موقفه هو منهم، ورد فعله تجاههم، لذا كانت القصيدة تتحرك صعداً على نحو يوازي الحالة النفسية للشاعر، ومن ثم لم ينْه قصيدته بالحديث عن آلامه وأحزانه، وإنما أنهاها بتصوير قوته وعزيمته، لأن هذه الآلام والأحزان ظهرت في فاتحة القصيدة.

وثمّ نمط آخر من القصائد كان الزرعي يلج فيه إلى الموضوع الرئيسي دون مقدمات، ويتمثل هذا النمط أكثر ما يتمثل في القصائد التي قيلت في أحداث الصراع بين المسلمين والفرنجة، وهذه القصائد تمتاز بوحدة الموضوع. من ذلك قصيدته التي قالها يمدح الملك المعظم عيسى ويهنئه بفتح حصن صرخد سنة ٦١١هـ، ومطلعها[٧٠]:

أضاءت بك الأيّامُ وابتهج الدّهر وطال بك الإسلام وانخفض الكفر

والقصيدة ذات موضوع واحد تتشدّ إليه خيوطها جميعها، هو الثناء على البطل المسلم والتغنّي بقوة دولته والظفر الذي حققه. ومما كفل لهذه القصيدة الترابط والانسجام أن الشاعر أكثر من إيراد الصور التي تصف الأوضاع الجديدة للمسلمين في دولة الملك المعظم، وهنا نجده يقدم ضربين من الصور: صوراً تمثل منعة الدولة وقوة جيوشها، وصوراً تمثل ارتياح المسلمين وفرحهم وابتهاجهم بذلك:

وأشرقت الدنيا سناءً بوجهك السّـ ـنيّ وعزّ العزُّ وافتخر الفخرُ
وأثنى عليك اللّهُ والدّهرُ والورى فكلٌ له فيك المدائح والشكرُ
ودولتك الغرّاءُ أيّامنا بها معظّمةٌ زُهْرٌ محجلةٌ غرُ

مناقبُ لا يُحصـــي الخلائـقُ بعضهـا وكيف يُعدُّ الرَّمل أو يُحصـــرُ القطـرُ
حمى في ذراه النَّاس أو كـــاد يحتمـــي من الموت منهم كلّ منْ لا لـــه عُمْـرُ

وحين يتحدث الشاعر عن قوة الجيوش الإسلامية فإنه يعمد، كذلك، إلـــى إيراد الصور التي تمثل قوة هذه الجيوش وضخامتها، تقابلها صور تمثـل إقـدام هذه الجيوش على الحرب، وارتياحها إليها، وانتشاءها بها:

عجاج المذاكي كحلها وخلوقها النّـــــ ـــجعُ وأصداء الـــدروع لهـا عطـرُ
مقامهم الحرب الزبونَ ونقلهـــــــــم رؤوس العوالي والدمـــاء لهـم خمْـرُ
نشاوى بكأس العـــز تصهـــال خيلهـم يرنحهم في الحرب لا العودُ والزمـــر

أما حديث الشاعر عن قوة الأعداء، ومنعة حصن صرخد فقد جـاء فـي سياق حديثه عن قوة المسلمين وتغنيه بها، ولما استوفى ابن عقيل ذلك خرج إلى تمجيد القوة لينهي قصيدته:

وما جنحـــوا للسِّـلم إلا لعلمهـــــم بأنّ قصارى فعلـــك القتـل والأسـرُ
ومـــا العـزّ إلاّ متـــنُ أجـرد ســـابحٍ وهنديـة بـترٌ وخطيّـــة سُمْـــرُ

وإذا كان ابن عقيل كفل لمبنى بعض قصائده نوعاً من الوحدة والانسجام، فإن قصائد أخرى تبدو مفككة بحيث يكون الانتقال فيها من موضوع إلـى آخـر ظاهراً على نحو واضح ، ولا سيما في القصائد التي يطول فيها نفس الشاعر.

٢- الأسلوب والصورة:

يُمثل أسلوب ابن عقيل الزرعي في بعض جوانبه الأسلوب الشعري الـذي يحرص على نشر الأجواء البدوية من خلال النسيب، وذكر الديـــار، ووصـف الظعائن، والحنين إلى بعض الأماكن المعهودة في جزيرة العرب، بالإضافة إلى

محاكاة الشعراء الأقدمين في أساليبهم وطرائق تعبيرهم. ولعل انتماء ابن عقيل إلى قبيلة عربية، ونشأته في منطقة حوران، واتصاله بزعماء بعض القبائل في مصر والشام لعل ذلك كله جعله يستشعر روح البداوة في نفسه، وانعكس ذلك على أنماط تفكيره وتعبيره. والشواهد على ذلك كثيرة في شعره، من ذلك الأبيات التالية التي ينحو فيها منحى الأقدمين في حديثهم عن الحياة الصحراوية، وتصويرهم الأطلال الدارسة، وحنينهم إلى ذكريات الحب القديم[٧١]:

أشاقك رسمٌ بعد أسماء أوحشا تخال بقاياه الكتاب المرقّشا
وكان مصيفاً للحسانِ ومربعاً ومغنى لمن أحببتُه ومعرّشا
ليالي يدعونا الصبا فنجيبُه فيرضى الهوى عنا ويغضب من وشى

ويبدو تمثل الشاعر لمعاني الأقدمين وأساليبهم في الأبيات التالية التي يصف فيها الظعائن، متغنياً بجمال نسوتهن، ومصوراً غيرة قومهن عليهن، ودفاعهم عنهن[٧٢]:

للّه ظعن من عقيل ودّعوا فاستودعوا قلبي عقيل عقائلِ
بيضٌ وسُمرٌ كلّ أبيض صارم عنها يذود وكلّ أسمر ذابلِ
من كلّ ظامية المعاطف خرعبٌ ريا الروادف، لدْنة المتمايلِ

وينسج ابن عقيل على أساليب الأقدمين، ويستلهم ألفاظهم وتعابيرهم، ويقلدهم في معانيهم وأفكارهم حين يصف رحلته إلى الممدوح على ظهر ناقة قوية، مصطنعاً الألفاظ الصعبة، والكلمات الجافية، والصور البدوية[٧٣]:

وإلا فسّر الهمّ عنك بعنْدلٍ من الهوج ميلاء الذراعين عرمسِ
هجانٌ من الصّهب العثانين تتقي إلى شدنيّ كالفنيق المجرفس
دمولٌ إذا أممتها عرض الفلا ضحاء وفي جنح الظلام المعسعس

وإذا كان ليس من السهل رد الأشعار السابقة إلى أصولها في الشعر القديم، فإن ثمة أشعاراً أخرى يسهل ردها إلى قصائد بعينها. وهذا النمط يكون فيه التقليد ماثلاً على نحو واضح في الصياغة والمعنى والوزن والقافية، من ذلك قصيدته[٧٤]:

أعد ذكر نجدٍ والمقيمين في نجدِ فلولا هوى نجدٍ صحوتُ من الوجدِ

فالنسيب فيها ذو صلة قوية بقصيدة ابن الدّمينة، التي مطلعها[٧٥]:

ألا هلْ من البيْنِ المفرّقِ من بُدّ وهلْ لليالٍ قد تسلّفن من ردّ

ومما يدل على أن ابن عقيل كان يستدعي معاني قصيدة ابن الدمينة السابقة التشابه بين معاني بعض أبيات الشاعر اللاحق وأبيات الشاعر السابق. فالبيتان التاليان لابن عقيل:

فإن صبا نجدٍ يهيج صبابتي إذا هاج رياها عن البانِ والرندِ
نأت وتصدت للصدود، وللنوى مع الوصل خيرٌ من رخوٍ على البعدِ

يشبهان لفظاً ومعنى قول ابن الدمينة:

ألا يا صبا نجدٍ متى هجتَ من نجدِ لقد زادني مسراك وجداً على وجدِ
بكل تداوينا فلم يشفِ ما بنا على أنّ قُرْبَ الدّار خير من البعدِ
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذي عهدِ

وقصيدة ابن عقيل التي مطلعها[٧٦]:

عــرف الغــرام وأنكــر الأطـــــلالا إذْ لم تُجــب عنــد الخطــاب ســؤالا

تدل على أن الشاعر كان ينظر على نحو واع في قصيــدة جريــر التــي مطلعها[٧٧]:

حــيَّ الغــداة برامـــــة الأطـــــلالا رســماً تحمّـــــل أهلُـــه فأحـــــالا

فقد ذكر ابن عقيل أنه تفوق في قصيدته تلك على قصيدة جرير، وأربـــى عليها، وذلك في قوله:

أنْســتْ جريــراً بالجزالـــــة قولُـــه "حــيَّ الغــداة برامـــــة الأطـــــلالا"

وواضح مما سبق أن هناك تشابهاً في الموضوع بين قصيدتي ابن عقيـــل وقصيدتي ابن الدمينة وجرير، بيد أن هناك قصائد أخرى حاكاها ابن عقيل دون أن تجد تماثلاً في الموضوع بين القصائد السابقة والقصائد اللاحقة، وإنما يبـــدو التماثل واضحاً في الوزن والقافية والصور والتعابير، أما الموضوع فمختلـــف. من ذلك قصيدته التي قالها في رثاء حوران[٧٨]:

جار الزّمـــان علـــى ســكّان حورانـــا لا كان دهر قضـــى بـــالجور لاكانـــا

فوزن هذه القصيدة وقافيتها وكثير من ألفاظها وتراكيبها وصورها مسلوخة من قصيدة جرير التي مطلعها[٧٩]:

بان الخليط ولـــو طُوّعـــت مـــا بانـــا وقطّعوا من حبـــال الوصـــل أقرانـــا

ولعل ارتباط الشاعرين بمنطقة حوران هو الذي جعل الشاعر الثاني يترسّم خطى الشاعر الأول في هذه القصيدة وغيرها، بالإضافة إلى أن الإطار المكاني للقصيدتين السابقتين واحد. وأورد فيما يلي طائفة متفرقة من قصيدة ابن عقيل تتلوها طائفة ثانية من قصيدة جرير لنرى كيف تأثر الشاعر اللاحق بالشاعر السابق. يقول ابن عقيل:

كانوا يجيرون من جور الزمان فقد أضحوا من الجور في الأمصار جيرانا
يوماً بأوجع مني إذا وقفت على تلك القرى وتذكرتُ الذي كانا
كأن أظعانهم والآلُ يرفعها سفائن أشرعت أو نخل بيسانا
ترى يعود إلى الأوطان ساكنها فأنظر الدارس الآيات عمرانا
صاح الجلاء بهم صوتاً فما لبثوا أن جاوبوه زرافاتٍ ووحدانا

فهذه الأبيات يقابلها من قول جرير الأبيات التالية:

حيّ المنازل إذْ لا نبتغي بدلاً بالدّار داراً ولا الجيران جيرانا
أوليتها لم تعلّقنا علاقتها ولم يكن داخل الحبّ الذي كانا
كأنّ أحداجهم تحدى مُقفيةً نخلٌ بملْهم أو نخل بُقرانا
هل يرجعنّ وليس الدهر مرتجعاً عيش طالما احلولى وما لانا
جهلاً تمنّوا حدائي من ضلالهم فقد حدوتُهم مثنى ووحدانا

غير أنّ هذا الأسلوب التقليدي لم يكن ليمنع ابن عقيل من أن يتأثر بمظاهر الصنعة اللفظيّة التي شاعت بين شعراء عصره آنذاك، حتى في بعض القصائد التي يصطنع فيها صور التعبير لدى الشعراء العذريين، كما في قوله متكثراً من الطباق والجناس على نحو يدل على أنه لم يكن له غاية فنية من وراء ذلك إلا هذه اللفظية الظاهرة[٨٠]:

إلام وعذري قائمٌ في الهوى العذري ألامُ ، ووجدي ليس يصدر عن صدري؟

وحتّام قلبي إن أسرّ الذي به من الحبّ، ظلّ الدّمع والسّقم في جهْرِ؟
ينم شحوبي عن شجوني التي نمت فيسعدني وجدي، ويخذلني صبري

ولم تكن الصنعة في شعر ابن عقيل مقصورة على البديع بأنواعه، وإنما تعدته إلى التلوين في الأوزان والقوافي، فنظم قصيدة تقرأ على غير ما قافية واحدة، وعلى خمسة أوزان، ومما ورد فيها قوله[٨١]:

اسأل يجبْك من المعظّمْ نيلُهُ المتوفّرُ الإحسانِ والإكرامِ
سيْلٌ من الرّفدِ العرمرمْ وبلُهُ المثعنجرُ الهتّانِ والإنعامِ
يُنبيك عن عيسى بن مريمْ شكلُهُ المستظهرُ البرهانِ والإعظامِ
ثبتٌ إذا المقدامُ أحْجمْ مثلُهُ فمُدمّرُ الأوثانِ والأصنامِ

وقد ينحو ابن عقيل في قليل من أشعاره أسلوباً ميسراً يمتاز بالسهولة والوضوح، والاقتراب من اللغة المحكية، واستعمال الألفاظ النابية - أحياناً - وغير النابية مما يشيع على ألسنة العامة. وقد رأينا طرفاً من ذلك في أشعار الهجاء، ونجد مثل هذا الأسلوب السهل في الأبيات التالية التي قالها يبشر بولاية أحد الأمراء، وتقترب هذه الأبيات من اللغة العادية اقتراباً شديداً، وغاية ما هنالك أن ابن عقيل أعرب كلامه، ورتب أجزاءه[٨٢]:

أذّنَ في الأقطارِ داعي الرّشادِ حيَّ على السّعْدِ ونيلِ المرادِ
وارتجعَ الحقّ إلى أهلِهِ وعادَ ما كانَ برغمِ الأعادي
وحلّ فتحُ الدّينِ في حصنِهِ ذي المنظرِ الأعلى الرّفيعِ العمادِ

ومع أن ابن الشعار الموصلي ذكر أن ابن عقيل كانت لـه القـدرة علـى ارتجال الشعر، إلا أن طابع الخفة الارتجالية لا يبدو في شعره وإنما يبدو فيه - أحياناً - شيء آخر ربما كان من أثر هذا الارتجال، وهو أنّ بعض شعره يحمل أحياناً علامات الفجاجة والتعبير المرسل دون صقل، بالإضافة إلى التكرار الذي قد يدل أيضاً على ضآلة في المحصول الفكري للشاعر، حيث تستحوذ عليه أنماط من المعاني والتعابير بصورة تسترعي النظر، كما في الأمثلة التالية المأخوذة من قصائد مختلفة[٨٣]:

* ينمّ شحوبي عن شجونيْ التي نمـت فيسعدني وجدي، ويخذلنـي صـبري
* ينمّ شحوبي عن شـجوني إذ نمـت بهنّ ويبدي الدمعُ مـا فـي أضـالعي
* نمّ شحوبي عن شـجوني إذ نمـت مـا حيلتـي وأدمعـي تكلّـم

وحين ننظر إلى الصورة في شعر ابن عقيل فإنّه يستبين لنا أنّ الشاعر لم يكدّ قريحته في تطلب الصور الجديدة أو المولدة التي كانت مقياساً فـي الحكـم للشعر في عصره، وإنما ظل يردد في شعره الصور التي كثر دورانها في أشعار السابقين، ومن ثم فإن جلّ صور ابن عقيل صور نمطية جاهزة. ومع ذلك فقـد تجد بعض الصور التي تصرّف في إخراجها، فبدت جديدة أو كـالجديدة، علـى شاكلة قوله يتحدث عن أخلاق أحد ممدوحيه[٨٤]:

خلقٌ أرقّ من الصّهبـاء لـو قُطِـرتْ يومـاً علـى الملْـح قطـرةً عذُبـا

وقوله مصوراً الدنيا امرأة تلد لتقتل أبناءها[٨٥]:

ولـدت لتقتـل ولْدهـا بعقوقهـا يـا ليتهـا قبـل الـولاد عقيـم

غير أن أنّ بعض محاولات ابن عقيل للإتيان بالصور الجديدة تبدو فجـة

غير مستساغة كما في الأبيات التالية التي يصور فيها نفسه نبياً بُعث إلى النـاس يدعوهم إلى المحبة، ثم يستطرد في الصورة فيجعل لنفسـه معجـزة وأنصـاراً وديناً[٨٦]:

بُعثـت نبيـاً للمحبـة داعيـاً إلى الحبّ عنها من يصـدّ ويصـدفُ
فمعجـزُ آيـاتي خضوعـي وذلتـي وصبري وأنصاري الأسى والتأسّـفُ
فـأظهرت للعشّـاق ديـن صبابـةٍ بها الحبّ أضحـى للمُحبيـن يُعـرفُ

ومع أنّ ابن عقيل لم تكن لديه القدرة الفنية التـي تسـعفه علـى ابتكـار الصور، فإنه وبتأثير من مقاييس عصره، كان يعمد إلى الإكثار من التشـبيهات والاستعارات المستدعاة من الذاكرة، في البيت الواحد أو في الأبيات المتلاحقـة، بحيث لا تغدو للشاعر أية غاية إلا تكديس الصور البيانية، على شاكلة قوله[٨٧]:

وبدرٍ مـن الجـوزاء صيـغ نطاقُـه من النّجم قرطاه، دُجـاه مـن الشّـعرِ
يُشـير بعنـاب ويرنـو بنرجسٍ ويسْفر عـن بـدرٍ، ويبسـم عـن درِ
نضا البيض من سـودٍ وهـزّ قوامـه فصال على العشّاق بالبيضِ والسـمرِ

لذلك لم تؤدِ الصورة في شعر ابن عقيل أكثر مـن وظيفتهـا البلاغيـة، كاستعمالها دليلاً على صحة المعنى، ووسيلة للإقناع بطريقة غير حاسمة، كمـا في قوله[٨٨]:

أنا ذاك الشّهم السـذي بفـراق الأهْـ ـلِ والـدّار إن نـأى لا يبـالي
لا تنال الحمْد الظّبا وهي في الأغـ ـماد حتـى تسـلّ يـوم القتـالِ
والهزبر الهصور في الغيل إن أخـ ـلـد سـاق الـرّدى إلـى الأشـبالِ

كما أدت الصورة وظيفتها في التزيين، كما في الأبيات التالية التي يصف فيها جمال أحد الغلمان الأتراك، مستعملاً الصور اللونية التي تمثل حمرة خديه ووضاءة وجهه، والصور الذوقية التي تمثل لذة ريقه، والصور الشمسية التي تمثل طيب رائحته[٨٩]:

فخذاه وردٌ والعذار بنفسجٌ وريّاه مسكٌ، والمراشف قرقفُ
كأنّ محيّاه الوضيء وفرعه صباحٌ وليلٌ مستنير ومسدفُ

وصور ابن عفيل معظمها من المنظور، وهو يقف فيها عند الشكل الخارجي، ولا يرتفع بها إلى درجة الإيحاء الفني. وهي كذلك صور جزئية لا يأتلف من مجموعها صور كبرى.

التّوثيق:

(١) ابن الشّعّار، عقود الجمان (ميكروفلم): ١: ١٢٣.
(٢) المصدر السابق ١:١٢٣. وقد ذكر ياقوت هذه القرية باسم "زُرًا". وأشار إلى أنها تعرف في عصره باسم "زرع وأنها من حوران، ياقوت: معجم البلدان: (زرا). وانظر كذلك: العمري، مسالك الأبصار (دولة المماليك الأولى): ١٩٠.
(٣) عقود الجمان (ميكروفلم) ١:١٢٣.
(٤) المصدر السابق.
(٥) ابن عقيل الزرعي، المختار من ديوان ابن عقيل الزرعي (ميكروفلم): ٥.
(٦) مرو العلاة: لم أجد موضعاً يعرف بهذا الاسم، وثمة قرية تعرف بـ (مرو) تقع شمال غرب إربد من الأردن، لعلّها المقصودة، وثمّة موضع آخر اسمه "العلاة" ذكر البكري أنه أرض بالشام. البكري معجم ما استعجم ٣: ٩٦٣، ٩٨٠. بيت راس: قرية في الأردن تقع إلى الشمال من إربد. ابن خرداذبة، المسالك والممالك : ٧٨ ابن عبدالحق ، مراصد الاطّلاع ١:٤١ . إربد مدينة في شمال الأردن. ياقوت، معجم البلدان : (إربد) Robinson 3.533

الحصن: قرية تقع إلى الجنوب الشرقي من إربد ١١٢: Schumacher.
(٧) ابن عقيل الزرعي، المختار من ديوان ابن عقيل :٤.
(٨) المصدر السابق:٤٢.
(٩) المصدر نفسه: ٤٥.
(١٠) قال هذه القصيدة يمدح متولي ثغر الإسكندريّة، ومطلعها:

هي الدار ما بين اللوى والمعرّس فعج بالمطايا الهوج فيها وعرّسِ

المختار من ديوان ابن عقيل: ٦١.
(١١) انظر المختار من ديوان ابن عقيل : ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٦٨.
(١٢) مطلعها:

أضاءت بك الأيّام وابتهج الدّهر وطال بك الإسلام وانخفض الكفر

المختار من ديوان ابن عقيل: ١٣.
(١٣) مطلعها:

أجدّ المقال لدى أجلّ مقام فلقد نطقت أمام خير إمام

المختار من ديوان ابن عقيل: ١٢

(١٤) منها قصيدة مطلعها:

إلام أُعنّى في الهوى وأعنّفُ وحتّام يجفوني الحبيب وأعطفُ

المختار من ديوان ابن عقيل:٥٠.

(١٥) مطلع القصيدة التي قالها مهنئاً بالعيد:

الصبر ينقص والغرام يزيدُ والدّمع يبدي والسّقام يعيدُ

المختار من ديوان ابن عقيل: ٦٣.

(١٦) مطلعها:

سقى عطفه ماءُ الصبّا فتأوّدا وأسكره خمر الدلال فغردّا

المختار من ديوان ابن عقيل: ٥٥.

(١٧) مطلعها:

رفعت للمُلك مجداً يخفض الشّهبا ونال في عصرك الإسلام ما طلبا

المختار من ديوان ابن عقيل: ٣٨.

(١٨) مطلعها:

ماشتْ بقدّ السمهريّ الأهيفِ ورنتْ بحدّ المشرفيّ الأهيفِ

المختار من ديوان ابن عقيل :٢٦.

(١٩) مدح في هذه السنة الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك، والملك العزيز عثمان، والملك الأشرف (له فيه ثلاث قصائد)، والملك المعظم عيسى، والملك الناصر داود. انظر المختار من ديوان ابن عقيل:٢٢،٥٩، ٦٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥.

(٢٠) انظر المختار من ديوان ابن عقيل: ٧٦.

(٢١) ذكر ابن الشعار أنّ ابن عقيل توفي سنة ٦٢٣هـ، بينما ورد في الصفحة الأولى من المختار من ديوانه أنه توفي سنة ٦٢٢هـ، ودُفن بمقابر باب الصغير من دمشق.

(٢٢) المختار من ديوان ابن عقيل:٧.

(٢٣) المصدر السابق: ٦٢.

(٢٤) المصدر نفسه : ١٦.

(٢٥) نفسه:٥ .

(٢٦) نفسه: ٤٦.

(٢٧) نفسه: ١٨.

(٢٨) نفسه: ٧.
(٢٩) نفسه:٢٧.
(٣٠) ذكر بروكلمان هذه النسخة في كتابه تاريخ الأدب العربي ٥: ٥٠.
(٣١) المختار من ديوان ابن عقيل:٢.
(٣٢) المصدر السابق: ٤٨.
(٣٣) المصدر نفسه:٢٠.
(٣٤) نفسه:٢٧.
(٣٥) نفسه: ١٧.
(٣٦) نفسه: ٢٩.
(٣٧) نفسه:٥٩.
(٣٨) نفسه:٥٦.
(٣٩) نفسه:٧.
(٤٠) نفسه: ٣١.
(٤١) نفسه: ٦٤.
(٤٢) نفسه:٧.
(٤٣) نفسه:٩١.
(٤٤) نفسه ٥٠.
(٤٥) نفسه: ٤١.
(٤٦) انظر إشارات إلى هذا الاجتياح في: ابن واصل، مفرّج الكروب ٤: ٢٥٧؛ أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين : ١٠٢.
(٤٧) د. عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية: ١٥.
(٤٨) المختار من ديوان ابن عقيل :٣٩.
(٤٩) ورد فوق هذه الكلمة كلمة (زرافات).
(٥٠) قال ناسخ الديوان: (لعلّها أمراس).
(٥١) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل، والزيادة من عندنا.
(٥٢) بصرى: تقع في جنوبي حوران إلى الشرق من درعا. ياقوت، معجم البلدان: (بصرى) أبو الفداء، تقويم البلدان: ٢٥٢.
الرمثا: مدينة تقع شمال الأردن على الحدود السورية. بيركهارت، رحلات بيركهارت: ١٤.
نجران: قرية إلى الشمال الغربي من السويداء في سوريا . ابن عبدالخالق، مراصد الاطّلاع ٣: ٢٠٠، ياقوت، معجم البلدان : (نجران).

(٥٣) حبال : من قرى وادي موسى في الأردن. ابن عبدالحق، مراصد الاطلاع ١:٢٨٣، ياقوت ، معجم البلدان: (حبال). السراة: سلسلة جبلية إلى الجنوب من البحر الميت: ابن عبدالحق، مراصد الاطلاع ٢:١٠٠ ياقوت، معجم البلدان: (السراة). ماب (مآب ومؤاب): مدينة في جنوب الأردن. ياقوت، معجم البلدان (مآب). المقدسي، أحسن التقاسيم: ١٧٨، ابن عبدالحق، مراصد الاطلاع ٣:٢٥ .

(٥٤) المختار من ديوان ابن عقيل: ٥١.

(٥٥) المصدر السابق:٥١.

(٥٦) المصدر نفسه: ٥٢ .

(٥٧) دعبل الخزاعي، ديوانه:٢٤٤.

(٥٨) المختار من ديوان ابن عقيل:٥٤.

(٥٩) المصدر السابق:٥٤.

(٦٠) المصدر نفسه:٧٦.

(٦١) نفسه:٧٦.

(٦٢) نفسه: ٦٤.

(٦٣) نفسه: ٦٤.

(٦٤) نفسه:٣٣.

(٦٥) نفسه:٧١.

(٦٦) د. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٣٢.

(٦٧) الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٤٧.

(٦٨) المختار من ديوان ابن عقيل: ١٤.

(٦٩) المختار من ديوان ابن عقيل: ٤٠.

(٧٠) المصدر السابق: ١٢.

(٧١) المصدر نفسه: ٤٩.

(٧٢) نفسه: ٥٦.

(٧٣) نفسه: ٥٧.

(٧٤) نفسه: ٢٩.

(٧٥) ابن الدمينة، ديوانه: ٨٠.

(٧٦) المختار من ديوان ابن عقيل:٧.

(٧٧) جرير، ديوانه ١:٤٧ .

(٧٨) المختار من ديوان ابن عقيل: ٣٩.

(٧٩) جرير، ديوانه ١: ١٦٠.

(٨٠) المختار من ديوان ابن عقيل: ٢.

(٨١) المصدر السابق: ٧٧.
(٨٢) نفسه: ٥.
(٨٣) نفسه: ٢،٥٦، ١٢.
(٨٤) نفسه: ٣٨.
(٨٥) نفسه: ٤١.
(٨٦) نفسه: ١١٥ .
(٨٧) نفسه : ٢.
(٨٨) نفسه: ٤١.
(٨٩) نفسه: ٥١.

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

١- ابن الشعار الموصلي، أبو البركات مبارك: عقود الجمان من شعراء هذا الزمان، ميكروفلم رقم ٣٣٩ تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.

٢- ابن عقيل الزرعي، أحمد بن عقيل بن نصير: المختار من ديوان ابن عقيل الزرعي، مخطوط ، مكتبة طبقبو سراي، تركيا، رقم ٢٨١٦.

ثانياً: الكتب المطبوعة:

٣- د. إحسان عباس: تاريخ النقد العربي من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري: نقد الشعر، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧١.

٤- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. رمضان عبدالتواب، دار المعارف، القاهرة، ط٣ ، ١٩٨٣.

٥- البكري، أبو عبيد عبيدالله بن عبدالعزيز: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، د. ت .

٦- بيركهارت، لودفش: رحلات بيركهارت، ترجمة أنور عرفات، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٦٩.

٧- الجرجاني، القاضي علي بن عبدالعزيز: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٥.

٨- جرير بن عطية، ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان محمد، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٦.

٩- د. حسين عطوان: مقالات في الشعر ونقده، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧.

١٠- ابن خرداذبة، أبو القاسم : المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩.

١١- دعبل بن علي الخزاعي: ديوانه، جمعه وقدم له وحققه عبد الصاحب عمر الدجيلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٢.
١٢- ابن الدمينة : ديوان ابن الدمينة صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تحقيق أحمد راتب النفاخ، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٣٧٩هـ.
١٣- أبو شامة المقدسي: تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤.
١٤- د. عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار البشير، عمان، ١٩٨٩.
١٥- ابن عبدالحق، صفي الدين: مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، مطبعة بريل ، ليدن، ١٨٥٢.
١٦- العمري، ابن فضل الله شهاب الدين: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، تحقيق دوروتيا كرافوسكي، المركز الإسلامي للبحوث بيروت، ١٩٨٦.
١٧- أبو الفداء إسماعيل، تقويم البلدان،؟، بغداد، د.ت.
١٨- المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ط٢، ١٩٠٦.
١٩- ابن واصل، جمال الدين محمد: مفرّج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال، دار إحياء التراث القديم ، القاهرة، ١٩٥٣.
٢٠- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

21- Robinson, Edward: Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions, Jerusalem, 1970.
22- Schumacher, Gottlieb: das Suedlische Basan, ZDPV, 1897, 20: 65-227.